# فى الرملة البيضاء

للدكتور عبد الوهاب عزام

دعيت حينما حللت بيت س إلى زيارة إخوان كرام
فى الرملة ويافا ، وقد صادفت ة شوقا فى النفس وحنيناً ،
ولبثت أرتقب الفرصة حتى حـ قد أفلتت . وبينما أنا بالمسجد
الأقصى يوم الجمعة الذى حدثت فى مقالى عن المسجد المبارك ،
شكوت إلى الصديق الكريم ى ذكرته قبلا وقلت إن وجهه
لا يعيب عن مشهد من مشاهد الـ ، مافاتنى من السرور بما أمّلت
من زيارة إخوان كرام فى مواطن عة ، وقات ضاق الوقت فالرحيل
بعد غد . قال : وما عليك إذا ز الدينتين غداً وركبت الطائرة
بعد غد من اللد دون الرجوع بيت المقدس ؟ إن فى الوقت
سعة لإدراك بغيتك ، وتأدية و باك ، وتذهب معاً إن شاء الله
فارقنا بيت المقدس ظهر بيت الخامس والعشرين من

ظهر فى سيرتها جميعاً لم يفهم ى هذه الدلالة وراح يقول :
ألا يخطئ المؤمنون والمؤمنات ويفوته أن المسألة هنا ليست
مسألة الخطأ بل مسألة الشك فى م النبي بالخطأ من طريق الوحى
والإلهام . ومن واجب الباحث ن يستبعد وقوع الخطأ من
هذا القبيل ، لأنه لم يحدث قط حياة الأنبياء ، ولأن الإغراء
الذى يقاوم كل هذه الموانع غير وجود ولا مفروض فى حديث
الإفك السخيف الذى لا برهان عليه

* * *

وبعد ، فإن كنا نأسف لشى فإنما نأسف لمجلة «كالمقتطف» أن تتورط فى مثل هذا الإسفاف وقد تنزهت عنه فى أيدى كتابها الأفاضل حقبة من الزمان ، وأن تسلم زمامها إلى هازلين يعبثون بكرامتها ويخرجون بها عن سوائها وهم ما هم من قلة الفهم وقلة الذوق وقلة الإنصاف ، وحظهم من حب العلم والحقيقة ما رأيناه ، وهو حظ يلحقهم بدعاة التبشير ويخرجهم من زمرة كتاب المقتطف المعهودين ، وللقائمين على المقتطف أن يختاروا لمجلتهم ما يحلو لهم من مصير ، ولكن القراء أيقاظ لا يغفلون .

عباس محمود العقاد

رمضان نؤم الرملة ، وسارت السيارة فى أودية فلسطين وشعابها ، وأفضنا نحن فى شعاب من الحديث وأودية نفصلها على ما نرى من مشاهد جميلة ، وما نمر عليه من زروع وأشجار وجبال وقرى ، وما يوحى به أولئك من ذكر وعبر بين الماضى والحاضر حتى أوفينا على المدينة الكريمة .

نزلنا فى دار البنك ، بنك الأمة العربية . ولهذا البنك دُور فى أمهات مدن فلسطين ، فسرنى ما رأيت من صور تاريخنا على الجدران ، وما توسمت من صور جهادنا الحاضر فى أعمال البنك وحسابه . وكم فرّج هذا المصرف من كرب ، وكم محا من يأس ، وكم عصم من مال وأرض ، وكم جمع الكلمات المتفرقة ، وألّف الأهواء الشتيتة . وإن رجاءنا فى مستقبله أعظم من اغتباطنا بماضيه ، وابتهاجنا بحاضره . وجزى الله خيراً كل من ساهم فى الذود عن هذه الأمة بعقل مدبر ، أو يد عاملة ، أو لسان ناصح ، أو مال نافع .

ثم سار بنا الشوق والسرور إلى دار الأخ الصديق المجاهد محمد يعقوب الغصين ، فنعمنا حيناً بالجلوس مع الأخ الكريم ، وجماعة من وجوه الرملة أتوا مسلمين . نضر الله هذه الوجوه ورعاها . وكانت مطامعنا قد اتسعت لأن نزور المدينتين ، ونجيب الدعوتين ، ونقضى الفرضين فى يوم واحد . فلما لقينا الوجوه الكريمة ، وأفضنا فى أفانين الحديث ، عرفنا أن ما بقى من إقامتنا فى فلسطين لا يتسع لأداء فرض واحد من فروض كثيرة تلزمنا بنزولنا الرملة ، فأقصرنا عن زيارة يافا أسفين آملين أن تيسر لنا فرصة نزور فيها يافا والرملة أيضاً

خرجت فى العشى فى صحبة الصديق الكريم أحمد حلمى باشا لنجول فى الرملة وما حولها على قدر ما تأذن لنا بقية نهار من رمضان فذهبنا إلى أطلال مسجد كبير تدل رسومه وبقايا جُدُره وأسطواناته ، ومكانُ المحراب من هذه البقايا ، أنه كان من أعظم الجوامع الإسلامية وأفسحها كجامع بنى أمية فى دمشق ، وجامع المعتصم فى سامرا ، وجامع ابن طولون فى مصر أو أوسع . ولا يبنى مثل هذا الجامع إلا فى مدينة كبيرة عامرة . وكذلك كانت الرملة البيضاء . فقد مصّرها سليمان بن عبد الملك وهو وال على فلسطين من قبل

أخيه الوليد، ثم عنى بعمارتها بعد أن آلت إليه الخلافة، ودعا الناس إلى البناء فيهـا فاتسعت وعظمت . وقد روى ياقوت أن سليمان أراد أن يخلد ذكره بمدينة الرملة ومسجدها كما خلد ذكر أبيه عبد الملك بقبة الصخرة، وذكر أخيه الوليد بجامع دمشق . وحسب جامع الرملة أن يكون صنو جامع دمشق، وبيت المقدس . ما هذه الأساطين والجدر إلا بقية العراك المديد بين الحادثات المدمرة وهذا المسجد العظيم، قامت كما يثبت المجاهدون الصابرون للخطوب الجسيمة، والأرزاء العظيمة

وقد تداولت الرملة أحداث الدهر أيام الحروب الصليبية حتى أنقذها من الفرنج السلطان صلاح الدين عام ثلاث وثمانين وخمسمائة؛ ثم اضطر إلى أن يخربها بعد أربع سنين حذرا أن يستولى عليه الفرنج مرة أخرى . وناهيك بالمحن التى تضطر صلاح الدين إلى إخراب مثل هذه المدينة !

وفى شمالى ساحة الجامع منارة عظيمة عالية مربعة مبنية بالحجارة الضخمة المهندسة بناها الملك الناصر محمد بن قلاون وكأنه أراد أن يجعلها مئذنة ومنارة أو مرقباً لمراقبة السفن القادمة إلى سواحل فلسطين . على المنارة كتابة واضحة فيها اسم الملك الناصر وألقابه، وتاريخ بنائها سنة ثمانى عشرة وسبعمائة . والمنارة قائمة وحدها مفردة، كأنها رمز للتوحيد ثابت على مر الزمان، أو علم للايمان القوى الذى لا يقهره تقلب الحدثان . كم شهدت هذه المنارة من الغير، ورأت من أحداث القدر، وتاريخ البشر ! وليت شعرى ماذا ترى من أخبار السلف، وماذا تنقم من أفعال الخلف ؟

فارقت هذه الآثار قائلاً : رحم الله بنى أمية، وهذا أيضاً من آثارهم، منشداً فى هذه الآثار المخذولة، وذاك الحمى المستباح قول كثير :

حموا منزل الأملاك من سرج راهط
ورملة لُدّ أن تباح سهولها

ذاكرا الملك الناصر محمد بن قلاوون الذى ما تزال آثاره فى مصر والشام شاهدة بمآثره، ناطقة بمحامده

ثم جلنا ساعة فى الأودية القريبة من المدينة والمزارع والمشاجر الناضرة النيحاء، ومررنا بوادى حنين

قال الباشا : هنا بستان للأخ الكريم الأستاذ محمد على الطاهر يقضى علينا الوفاء أن نراه لنعرف كيف تعهداه والعناية به . والبستان فى ربوة يؤدى إليه طريق صاعد ضيق . قال الباشا : إن سائقنا يشفق من هذا الطريق، فكلما مررت على مقربة منه أسرع آملاً ألا أذكر البستان إلا بعد أن يبعد عنه فيستريح من مشقة الإصعاد إليه وتخلل المسلك الضيق بالسيارة . وقد أدركت حيلته فهددته أن أخبر الأستاذ الطاهر ليهجوه بمقال أو مقالين . سرنا بين بساتين يانعة كثيفة الشجر، كثيرة الثمر، حتى انتهينا إلى بستان أخينا فدخلناه وتخللناه، فوجدناه حديث عهد برى، وسرنا أن وجدناه مع ما أدركه من حرفة الأدب التى جعلته أقل نضارة من جاره، مخضرا تنوء أشجاره بما حملته . أخذنا غصناً من البرتقال فيه تسع حبات متراكبة كعنقود العنب، وغصناً من الليمون الهندى الذى يسمى جريب فروت[1] فيه خمس حبات كذلك، قلت أنعم بها من بشرى نحملها إلى الصديق فى القاهرة، وهدية نطرفه بها من بساتينه الناضرة، وقد حرصت عليها وحملتها فى الطائرة متيمناً بها، أراها أغصان نضارة وسلامة، ورمز عناية بالصديق وكرامة، وتنضيراً للصلة بين مصر وفلسطين . وما أحسبنى فرحت بهدية حملتها، ولا الأخ الطاهر سرّ بهدية حملت إليه، مرورنا بهذه الهدية الخضراء الجميلة التى حملتها الرياح من الرملة إلى القاهرة

وعدنا إلى دار ضيافتنا للافطار وصلينا فى مصلى فى الدار به ضريح يقال إنه ضريح أبي يزيد البسطامى الصوفى المعروف . وما عرفنا فى تاريخ أبى يزيد أنه جاء إلى الرملة، بل قبره فى بسطام بلده معروف يقصده الزوار من الأرجاء، ولا سيما الصوفية حتى اليوم؛ ولعله ضريح بُنى على ذكر أبى يزيد، أو قبر صوفى آخر من البسطامية أتباعه غلبه على قبره صيت شيخه . وقد قرأنا فى تاريخ الصوفية أن أول من عرف منهم بهذا الاسم صوفى اسمه أبو هاشم اتخذ صومعة فى مدينة الرملة وتوفى سنة ١٥٠ فهل هذا قبره ؟ لم يتسع مقالنا للبحث فى هذا الشأن

وبعد العشاء ذهبنا إلى دار الشبان المسلمين فلقينا جماً من الشبان حاشداً وعلمنا أنهم لم يجتمعوا منذ سبع سنين ؛ فرطت

(١) grups fruit